

"مجتمع طرابلس في زمن التحولات العثمانية"

كتاب عبد الغني عماد "مجتمع طرابلس في زمن التحولات العثمانية" (*) ليس الأول من نوعه عن هذه المدينة العريقة، وان كان اول في غوصه على الأصول والجذور بحثاً عن الانتماءات والقوانين التي انتظمت ضمنها مجموعة عوامل اجتماعية او تحكمت فيها قواعد نمو أو تأخر فيها المجتمع الطرابلسي مدى مساهمة زمنية.

التاريخ يهتم اصلاً بتعميم وتعليل خلاصاته لأحداث ووقائع حصلت. التاريخ حالة مستدامة بلا انقطاع. التاريخ لا ينقطع بل يتنوع. قد تحصل انقطاعات ضمن حالة حدائية متشابهة. مثلاً، يحصل بتر زمني في نشاط أحداث تاريخية لسبب من الأسباب، ثم تعود هذه الأحداث إلى التناجح بعد همود. التاريخ قد يتكرر لكن في نوعية واساليب جديدة. فرض على التاريخ أن يعيش الماضي دائماً، وكل حدث راهن يشكل تاريخاً بعد حدوثه. لا تمكن مقارنة التاريخ كحالة حاضرة او مستقبلية. والتاريخ سواء كان اقتصادياً او اجتماعياً او ثقافياً او عسكرياً يصنع من وثائق محفوظة او شفوية، واشكاليته مبنية على دراسة هذه الوثائق وتحليلها. وفقدان الوثائق يحول التاريخ إلى فعل مجهول وحكايات متخيلة ومفتضة، لذا جهد المؤلف عبد الغني عماد إلى تأطير وثائقه، مستعيداً الأحكام والانطباعات الشائعة باعتداده على سجلات محكمة طرابلس الشرعية.

أهم ما في مادة المؤلف التاريخية تركيزه على مضمون علاقات حسن الجوار والانفتاح والتعاون بين طرابلس والمناطق المحيطة بها. وتثبت المؤلف من علاقات انفتاحية كهذه بالارتكاز إلى امتداد الملكيات العقارية لعائلات طرابلس إلى معظم قرى الزاوية، كما تثبت ذلك من خلال علاقات تبادلية في عقود البيع والشراء والملكية العقارية لمالكات من الزاوية إلى قلب المدينة. وحافظت تلك الملكيات على وضعها ولم تتأثر بإلحاق الزاوية في المتصرفية وانفصالها ادارياً عن طرابلس. ويرى المؤلف مع مؤرخي سيرة مصطفى بربر أن العلاقات كانت متينة جداً بين المسلمين والمسيحيين إبان المرحلة التي حكم فيها. لذا لم يكن غريباً ان يلجأ بربر عام ١٨٢١ إلى جبة بشري هارباً من

خضمه اللدود علي بك الأسعد، ولم يجد الا صديقه البطريرك الماروني يوحنا الطو الذي "اجاره في نكبته وتشرده ووفر له الأمان في جبة بشري ثم توسط له لدى الأمير بشير".

كما اقام مصطفى بربر أغان علاقات متينة مع البطريرك يوسف حبيش، ويقول الخوري اغناطيوس ان هذه الصداقة نشأت عن معاملة بربر العادلة للمسيحيين ولا سيما الموازنة. والعلاقات هذه ثابتة في الرسائل المتبادلة بينهما. وأما العلاقات السلمية فاشتمت على علاقات أهالي الضنية مع زغرتا، وبرى المؤلف ان مواقف يوسف بك كرم شكلت "استمراراً للنهج الذي تم ارساؤه عبر ممارسات رسخت العيش المشترك والمشاركة



عبد الغني عماد

مجتمع طرابلس
في زمن التحولات العثمانية

مفتي طرابلس لصديقه يوسف بك كرم بعدم الذهاب للاشتراك في حوادث ١٨٤٠ في جبل لبنان قائلاً له: "لا تروحوا لمطرح ولا تقارشوا شيء. فهذا هو نصنا لمحبكم".

وتشير الوثائق إلى ان يوسف بك كرم التزم نصيحة المفتي. وفي أحداث ١٨٦٠ ظهر عمق الترابط بين مسيحي الشمال ومسلميه. وفي رسالة من يوسف بك كرم إلى الوزير التركي خورشيد باشا اتهم مفاده "ان الوزير أقر صدر مسلمي عكار والضنية وطرابلس وحمص على مهاجمة نصارى الشمال". وأكدت الأحداث اللاحقة ان هذا التبريز باء بالفشل ولم يستطع تقويض علاقات الاخوة والعيش المشترك. والدليل الساطع على ذلك ان الشمال لم يشهد ما يعكر صفو هذه المطاعن المفرضة تحملها يوسف بك كرم بسبب مواقفه اللطائفية، خاصة ان البعض حمله مسؤولية سقوط زحلة لرفضه الدخول في حرب طائفية. اقدم الصحافي خليل الخوري في جريدته "حديقة الأخبار" وندرة مطران في كتابه "سوريا الغد" على اتهام يوسف بك كرم بكونه المسبب الرئيسي للفتنة كلها وأنه "كان السبب في يأس الزحليين وسقوط مدينتهم إذ خذلهم بوعده لهم أنه أت لنجدتهم وتوقف، بل ان الوعد لم يبق مكتوماً فلتمزج الدروز الفرصة ونشروا أعلامه ودخلوا بهذه الخدعة المدينة المحاصرة".

يرى عبد الغني عماد "ان مواقف الاعتدال والتعقل في مراحل الفوضى وفي خضم الفتن، مواقف غير شعبية". وعن يوسف بك كرم أبعاد المؤامرة، فسعى إلى خطاب انصهاري وطني، وها هو يدعو للثورة الاجتماعية لا الطائفية، "لعمري ان الحاكم الذي يتجاسر ان يقول: اخضعوا لارادتي المطلقة هو بالنتيجة يقول: أنا ربكم الأعلى فاعبدوني، وها نحن المؤمنون بالله نتخذ لنا حيواناً ناطقاً فنعبده".

هذه التاريخانية من حسن الجوار، والعيش المشترك، والانفتاح على الآخر كنا ولا نزال في حاجة اليها. التاريخ الذي كتبه عبد الغني عماد هو تاريخ أيامنا الزاوية بكل مأسيتها.

وضاح يوسف الحلو

(*) صدر في منشورات "دار الانشاء والصحافة للطباعة والنشر"، ٢٠٠٢.